

العاقرة

﴿ بقلم غنايل نعيمه ﴾

« يكمل عبداً لله جميل على عبدة الله جميله باسم الاب والابن والروح

القدس . »

لما فاه الخوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من ايار سنة ١٩٠٠ في قاعة فسيحة ، مغطاة بالرياش والزخرفة ، من دارابي جميل الكرياج ، هبطت على مئات من المدعوين الى العرس سكينه خرساء تجلبها هيبه سماوية . الاطفال والاحداث والعذارى والفتيان والكهول والشيوخ - كلهم حبسوا انفسهم كأنهم يصغون الى رفقة اجنحة خفية . الخوري بولس نفسه ، الذي ربط في حياته بوفاق الزبيجة نحو الالف من ابناء قطيعه المحفوظ من الرب ، لفظ هذه الكلمات تلك الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيل لسامعيه ان الروح القدس كان يتكلم بلسانه . ربما كان ذلك لان الخوري بولس في كل حياته الطويلة التي قضاها خادماً للرب ادرك لأول مرة اهمية كلماته ، وتنورت روحه فرأى الزبيجة كسر مقدس الهي لا كطقس كنائسي فقط . او ربما كان السبب ان الخوري ، من يوم اقتبل شرف الكهنوت الى تلك اللحظة ، لم يرفع يده ليبارك رباط عروسين كجميل الكرياج وجميلة

الشتاوي - لكن الحضور شعروا فجأة انهم في حضرة قوة علوية ، وتحولات القاعة في اعينهم ، مع كل ما فيها من انوار الشموع الملتوية ، الراقصة المنتصبه نحو العلاء ، الى هيكل طاهر يتم فيه سر مقدس عميق . لذلك توشعوا بالسكوت والورع .

لا شك ان منظر العروسين كان مما زاد المشهد هيبه وجلالاً . فجميل الكرباج - وحيد ابيه وامه - كان اجمل شاب في كل البلدة وجوارها . بل في كل لبنان ، اذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون ان « الله خلقه وشال ايده » . طويل القامة ، ممتلى ، الجسم ، ابيض البشرة ، مستدير الوجه يسقي بياضه دم الشباب . في عينيه تضحك الحياة ، وفي شاربيه الصغيرين تجلبي قوة الاعتماد على النفس والثقة بالذات والفخر بما فعله وسيفعله بمد في هذا العالم . هجر والديه لما كان له من العمر ١٨ سنة . جاء اميركا فافلح في التجارة وجمع من الثروة نحو الف ليرة في مدة قصيرة . ووجد في اثناء ذلك وقتاً ليصرفه على تثقيف ذاته فدرس وتعلم وحصل ما لا يحصاه الوفاء من المهاجرين اللبنانيين والسوريين في هذه البلاد في عشرات من السنين . ثم لبى دعوة والديه فعاد الى لبنان وبنى داراً فخمة - احسن دار في كل البلدة - وفتح تجارة جديدة . كل ذلك وهو لم يتخط الخامسة والعشرين من سنه . اهل البلدة يتحدثون باجتهاده وعقله وليته ودماثة اخلاقه . لا يشتم ، لا يلعن ، لا يسب الدين ، لا يسكر ، لا يدب بالقمار ولا يدخن . يدعو كل شيخ في البلدة « جدي » وكل عجوز « ستي » وكل كبايل « عمي » او « خالي »

وكل كهلة « عمتي او « خالتي » وكل شاب « خيبي » وكل فتاة « اختي » .
يحيي الطفل ويحيي الشيخ قبل ان يبادراه بالتحية ويرفع قيمته عن رأسه
باعتبار واجلال لما يحيي النساء . قلما يدعو احد في البلدة الا « جميل
افندي » وبالاخص بعد انتخابه لمجلس البلدية او « القومسيون » . كم
من الامهات اشتبهن وطلبن وصلبن في قلوبهن ، والبعض علناً ، ان يكون
جميل نصيب بناتهن — ولكن دون جدوى ! كم من العذارى كن
يسرقن لمحاظه ويتبعن خطاه وينصبن له اشراك الحب ويستعملن ضده كل
دهاء النساء — ولم يفلحن ! اما هو فلم يفتح خزائن قلبه سوى لجميلة
الشتاوي . الفتيات اللواتي كن يعتقدن انهن اجمل من جميلة الشتاوي
بنرجات ، اخذن ينشرن الاخبار ان جميلة سحرت ابن الكرياج بما لها لا
بجمالها وان جميل الكرياج ، لو كان على شيء من عزة النفس وتقدير
الجمال ، لما تعلق بجميلة الشتاوي على الاطلاق .

مع ذلك هو لاء الامهات والعذارى انفسهن كن ينظرن تلك الليلة
الى العروسين ويعترفن في اعماق قلوبهن ان جيلاً قد خلق لجميلة وجميلة
لجميل . كن ينظرن الى نضارة الحياة والجمال المتدفقة من وجه جميلة ،
ومن كل خيط من ثيابها البيضاء كما يتدفق العطر بين اوراق الوردة التي
فتحت قلبها لنور الشمس ، ينظرن الى قامة جميلة وقد كادت ان تعادل قامة
عريسها طولاً ولو زادتها رقة وليناً ، ينظرن الى عينيها وانوار السعادة والحب
والشباب قد انقدت فيهما ، الى تورد وجنتيها ، الى بياض عنقها ، الى حمرة

شفتيها الرقيقتين وقد طبقتا بلطف كان بينهما اول قبلة من اول حبيب
تخافان ان تفلت من بيهما نو كأنهما تستعدان ان تطبعا قبلة على وجه الحياة ،
ينظرن الى جميل بجانبها والى المحوري بولس ، ولحيته البيضاء تغطي صدره ،
وضفيرة شعره الشاب مسدولة على ظهره وسطه ، فيرين في العروسين تمثال
الشباب نفسه وقد انتصب امام شبح الشيخوخة وتتهدد كل منهن مشتبه لو
كانت واقفة في تلك الدقيقة بجانب جميل الكرياج

اما الشبان فانتصبوا كل مدة الاكليل وآذانهم لا تسمع اصوات الكاهن
والمرتلين ، واعينهم لا ترى من بين كل الزوجوه في تلك القاعة الواسعة سوى
وجه العروس . وقفوا كأنهم في غيبوبة . ويحكى ان احدهم - بطرس -
جربوع - الذي حاول مرة بعد مرة ان يحصل على يد جميلة ، حرق طرف
شاربه الايمن بالشعلة تلك الليلة ولم يتبه حتى صرخت ام طنوس التي
كانت واقفة بجانبه « ويحك يا بطرس ! حرفت شواريك ! » كم من الشبان
الحاضرين حسدوا جميل الكرياج في اعماق قلوبهم وتمنوا لو كانوا في ثيابه !
والبعض ينقلون عن لسان المحوري بولس ان هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف
تلك الليلة انه في خمسين سنة قضاها في خدمة الكنيسة لم يشته مرة واحدة
ان يبدل حلله الكهنوتية بكل ثروة العالم ، لكنه لما امر العروسين - جميل
الكرياج وجميلة البشتاوي - ان يتبادلا قبلة المحبة تمنى في تلك الدقيقة
لو كان في ثياب جميل الكرياج ولو كان جميل الكرياج في ثيابه

جميلة البشتاوي ، عينا جمالها الساحر ، كانت تحوي على صفات قلما

اجتمعت في فتاة في كل ذلك الجوار أو سواه . اذا دار عنها الحديث في ابي
مجلس كان - سواه كان مجلس نساء او رجال ، او مجلس رجال ونساء
معاً - فاول ما تناوله الالسن حنبا الرائع ، ثم ينتقل المتحدثون الى طباعها
وعلمها وثروتها الخ . يقول واحد انها ملاك - « الارض ما بتحس فيها » -
غيزيد الاخر انها « عالمة » ويعني انها انتهت مدرسة داخلية للبنات « واخذت
الشهادة » . ويتابع الثالث انها « وحيدة وان اباها قد ترك لها بعد وفاته ارزاقاً
واسعة و « صندوقاً » من المال . ويضيف الرابع انها ستربت كل ارزاق عمها
لانها وربته الوحيدة الفخ الخ . لذلك فلا عجب اذا ظل زفافها لجميل الكرياج
موضوع جلسات الرجال والنساء في البلدة مدة اسبوع على الاقل . الكلا
كانوا يتعجبون لهذا الاتفاق الغريب . جميل الكرياج « وحداني » وهي
« وحدانية » . هو غني وهي غنية . هو « عالم » وهي « عالمة » . هو في
شرح شبابه وهي لا تزال في الثامنة عشرة من عمرها . هو من عائلة معروفة
وهي من نسل شريف . هو « عاقل » وهي « عاقلة » . هو جميل المخلق
وهي جميلة المخلق . والاغرب من ذلك كله اسمه جميل واسمها جميلة !
واتفاق الاسمين على الاخص جعل المحوري بولس ان يتنبا لها بمستقبل محفوظ
بالامن والراحة والبنين مستنداً في نبوءته على انه في حياته الكهنوتية كلها
لم يبارك قبل تلك الليلة سوى اكليلين اتفق فيهما اسم العريس مع اسم
العروس . الاول كان اكليل « عزيزة » والثاني « شاهين وشاهينة » .
وفي الحالين انعم الله على العروسين بثرية كبيرة . لذلك سيشتم الله بالبنين



✱ + ۱۱۵۳ + ✱

على جميل وجميلة . ابو جميل وام جميل وام جميلة قبلوا يد الخوري بولس بكل ورع لما فاه بنبوءه واجابوه بصوت واحد تقريباً . « بدعاك يا بونا » « أبونا » رجع تلك الليلة الى بيته متهللاً كأن شبابه قد عاد اليه لانه كان يحصل في حبيبه عشر ليرات انكليزية . اما بقية المدعويين ففرقوا بعد نصف الليل الى بيوتهم وهم يتبادلون الافكار عما رأوه وسمعوه وعما لاقوه من حفاوة اهل العريس وسخائهم وجودة خمرتهم وطيب « عيشهم » وكلهم يتنبأ عن مستقبل العروسين

مضت الاشهر الاولى من حياة جميلة الزوجية كيوم من ايام الربيع لم تر سواه غيمة على الاطلاق وهو اوه واشجاره وازهاره واعشابه وانهاره ودياباته وحشراتة - كلها تملئ بخمرة الحياة ولذة التجدد كأنها في مهرجان عظيم . وجميلة كانت في بيتها الجديد - بين « عمها » بوجميل و « امرأة عمها » ام جميل وشريك حياتها جميل - محور حياتهم اليومية . حولها تدور افكارهم وبها تناط آمالهم . لاجلها يتعبون ولاجلها يعيشون . اذا نحتك ضحكوا وان عبت عسوا كأنها ينبوع حياتهم ومصدر كل افراحهم واتراحهم . يعبدونها كأله ثانٍ ولا يطلبون في هذا العالم كله سوى رضاها . لما انتهت مدة التهنئة بعد العرس اقترحت ام جميل على ابنها ان يأخذ زوجته الى بيروت او الشام « تغييراً للراء » فصادف هذا الاقتراح استعمان الجميع وزار الزوجان الشام وزحلة وبيروت ولما رجعا

هرعت ام جميل الى جميلة تعانقها وتقبلها وتضمها الى صدرها صارخة باهتة .
 « حبيبي . طولتي الغيبة ! حبيبي . احترق قلبي بلاك ! » ثم القت نظرم
 على يدي كنتها فرأت بعض خواتم جديدة على اصابها وسوارات ذهبية على
 معصمها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثينة على صدرها فكادت نظير فرحاً .
 « اي . مباركين . مباركين يا بنتي . تعيشي وتطعمي ان شاء الله بجانم
 جوزك » . ولما ضحكت جميلة اذ رأت جماتها فرحت بتلك « الحراتيق »
 - كما دعت مجوهراتها - اكثر منها امتنع لون ام جميل بلحظة واجابت
 بصوت فيه غصة اسف . « هو حراتيق ؟ بنت سرق بزمانها ما شافت مثلين .
 وديانك انت شوييلتي لمن غير الذهب والالماز ؟ »

اما جميل فكان حبه لزوجته في خلال الاشهر الاولى يتجدد كل يوم .
 كل يوم كان عنده عرساً . لما يذهب صباحاً الى مخزنه يتزود قبلة منها .
 ولما يعود عند المساء يجدها بانتظاره في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمها
 الى صدره منحياً الى وجهها ثم يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين . « كيف
 حال قرقورتي اليوم ؟ » فتجيبه والسعادة تضيء في عينيها منعكسة في كل
 عضلة من عضلات وجهها « كيف حال قرقوري اليوم »

« القرقورة » و « القرقور » اصبحا في قاموس حياتهما اليومية اسمي
 علم حلاً محل « جميلة » و « جميل » . جميلة احبت اسمها الجديد حتى
 كادت تنسى اسمها الاصيل . وجميل كذلك . وكلاهما كانا بكرهان
 الزائرين ليس لسبب مادي او تقاعداً عن القيام بواجبات الضيافة السورية

بل لان الزائرين كانوا يأخذون قسماً من وقتها الثمين الذي كانا يرغبان ان يصرفاه معاً . وبالاخص لانها في حضرة الغرباء كانا يضطران ان يرجعا الى « جميل » و « جميلة » بدل « القرقور » و « القرقورة » . جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها عليه . وذلك لان كل زائر كان يعد من واجبات اللياقة واللطف ان يقول لها دائماً كلما قدمت له سيكارة او فنجاناً من القهوة او نرجيلة او نحو ذلك « ان شاء الله عاقبال فرحة عريس » . هذه الطلبات والتمنيات الدائمة كانت كقطرات سم في كأس سعادتها الطافحة . حب جميل وقرب جميل وقبلات جميل - هذه هي سعادتها وكمال حياتها . فلماذا كل هذه التمنيات - « عاقبال فرحة عريس » كأن حياتها دون « عريس » ليست كاملة ؟

مرة - لما انصرف الضيوف واختلت مع جميل في مخدعها - تقدمت اليه بلطف واخذت طرف شاربه الايسر بيدها اليمنى لتقبله ثم قالت . « اسمع يا قرقور ! ألا تتضحير من كثرة تمنيات هؤلاء الناس البلداء « عاقبال فرحة عريس » يرمونك بها اينما صادفونك وفي كل الاحوال ومهما كان موضوع الحديث ؟ قد بنأت انفر منها حتى صرت اكره معاشره الناس لاجلها . « طرحت هذا السؤال على زوجها وهي متأكدة انه سيجيبها انه يكره تلك التمنيات مثلها او اكثر . وانه يحتملها لان لا سلطة له فوق الغير ليلجم ألسنتهم . وشد ما كان عجبها لما سمعت جوابه

- هل تشتم الناس « يا قرقورة » اذا كانوا يشتمون لنا السعادة ؟

— هذا الجواب أكد لجميلة ان متابعة الحديث في هذا الباب ربما كشفت لها السر عن اول تناقض في الافكار والاعتقادات بينها وبين جميل . وهي كانت تثق بكل وجودها ، حتى تلك الدقيقة ، ان حياتها مع جميل ستكون كما كانت حتى تلك الليلة ، ربيعاً دائماً لا يعكرها اقل اختلاف في الميول والاذواق والاراء والاعتقادات . لذلك كانت تخاف ان تعبد ولو نقطة صغيرة جزئية لا يتفق فيها ذوقها مع ذوق زوجها . لما هم جميل ان يشتري لها حلاها في بيروت تمنعت كل التسنع لانها — كما قالت حينئذ — لم تشأ ان تكون « حماره مشنثله بالذهب » ولانها تعد التحلي بالذهب والماس عاراً على امرأة لها في جمالها واطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها . لكن جميلةً أصراً على عزمه واسكتها بقوله ان حجبها هي « حجة الفقراء » وان الافضل ان « تلبس لكل حالة لبوسها » وان « مقامها في الهيئة الاجتماعية » يحتم عليها ان تلبس حلي ذهبية وماسية الخ . فاذعنت لارادته ، لا لانها اقتنعت بقوة برهانه ، بل لانها قررت في عقلها ان سعادة الزوجين تطلب اتفاقاً تاماً في الاذواق والاجل تلك السعادة اخضعت ذوقها لذوق زوجها . ولذلك خشيت الآن من متابعة الحديث خوفاً من ان تصل الى حيث لا تشتهي . لكن طبيعتها النسائية ، تلك الطبيعة نفسها التي حملت جدتها حواء على الاكل من الثمرة المحرمة ، دفعتها الان الى متابعة الحديث الذي فتحه فجأة وما كانت تظنه على شيء من الاهمية

١ — أو لسننا سعيدين بلا « عريس » ؟ وهل سعادتنا لا تكمل بغير

اولاد؟ - طرف شارب زوجها بقي، بين اصابعها تلعب به وعيناها قد احدثنا بعينه كأنها تقرأ فيهما ما احدث سوء الحما في قلبه .

- لماذا هذه السوءالات يا قرقورة؟ ... ولكن لو رزقنا الله «عريساً»
 - كما يشتهي لنا هؤلاء القوم الذين تتضجرين منهم - أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا؟ - لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت اصابع يدها اليمنى وسقطت من شارب زوجها وحوّلت نظرها الى الارض . اذن سعادة جميل بحبها ليست كاملة . اذن حبه لها لم يبلغ حده بعد ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف . ولماذا قد امتد خيها له واتسع حتى غمر كل حياتها كوحية جارقة فاصبح جميل في حياتها الككل بالكل؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا تسأل من ربيها الا ان يبقى لها ما تملكه الان؟ هي لا تبغضه البنين - كلا . بل تشتهي من كل قلبها ان تصبح اماً . لكن هذه الشهوة سواء تحققت ام لم تتحقق - لا تزيد ولا تقلل من سعادتها ما دام حب جميل يدفئها ويدور مع دم قلبها الى كل اعضاء جسمها . فلماذا يتكلم جميل عن «كمال السعادة» و «تضاعف الحب»؟ - دارت هذه الافكار في رأس جميلة باقل من طرفة عين فوجدت نفسها مدفوعة الى ان تسير نحو زوجها الى النهاية . فعادت ورفعت عينها الى وجهه محاولة ان تعيد اليها كل اللطف والحنو والاستلام التي كانت فيها قبلاً وقالت آخذة بيد زوجها .

- اعذرفي يا قرقور على هذه الاسئلة الباردة . ولكن ... ولكن لنفرض ..

— قالت ذلك بروفةت كأنها خافت ان تفوه بيقية الكلمات التي كانت تدور على طرف لسانها .

— لنفرض ماذا ؟

— لنفرض . . . لنفرض ان الله لم يرزقنا . . . ان الله يخل علينا « بعريس » او « بروس » . . . فهل . . . فهل يضعف حبك نحوي حينئذٍ وهل تعد سعادتك ناقصة ؟

— لله ما اكثر استكاثك الليلة ! قلت لك انه اذا من الله علينا « بعريس » تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا . واذا . . . واذا لم يشأ الله ان يهبنا ذرية . . . (هنا بلع جميل ريقه كأن قد اصابته غصة) واذا لم يمن الله علينا بنسل ف فاذا تقدر ان تفعل ؟ لا يبقى لنا الا ان نخضع لارادته . مع ذلك فقدعينا من هنا الحديث لانه بلا جدوى وتعالى لننام . — اخذ جميل بيد زوجته وامالها الى صدره ولاول مرة بعد اكليهما قبلها ولم يشعر بحرارة تنسرب من جسمها الى جسمه ولا احس بدقات قلبها على صدره وبرودة انفاسها على وجهه .

ام جميل (وابوجميل احياناً) لم يبق لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة والسهر على راحة كتبها . وذلك ، في عرفها ، كان ينحصر في ان لا تدع جميلة تقوم بشيء من اشغال البيت البتة . لذلك لما تغيبت ذات يوم عن البيت نحو ساعة او ساعتين ورجعت فوجدت كتبها في ساحة الدار والمكنسة في يدها كادت تغيب عن صوابها . « مي . مي . ريتني ما عيش ان شا الله !

ريتي تحت اللي ! انتِ من خرجك تكسسي ؟ انتِ ديانتك يبليق لمن
 الا الذهب والاطالس والحرير ؟ ريتهن يقبروني ان شا الله . هات . هات .
 هات . وروحي تطلعي لك شي كتاب قرّيه ! « عيشاً حاولت جميلة ان
 تبرهن لحماتها ان لا عيب في شغل البيت . وانها لا تتمب من التكنيس .
 وانها قد ضجرت من الجلوس والقراءة ونطلب حركة جسدية . تلك البراهين
 قد تفنّع ابا جميل ، لكن ام جميل قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك
 الفلسة . وفلسفتها ان « بنات الاكابر » لا يجب ان يعملن عملاً على الاطلاق
 سوى الاكل والشرب والتأق في اللباس . والا . شو يقولو عنهن العالم ؟ »
 لما رجع جميل تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عاداتها هرولت نحوه
 امه واخذت تشكو له بصوت ربهه مزاح وثلاثة ارباعه جد ما رآته من
 « القتررة » في ذلك النهار من محاولتها ان تنظف البيت . جميل وافنم
 امه في كل ما قالته ان الكناسة ومسح الفبار وغسل الثياب والصحون وما
 شابه ليس « من خرج بنات الاوادم » واخذ عهداً للحال على جميلة - قسراً
 عن ارادتها - ان لا تعود لمثل تلك الاشغال . وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر
 « صانعة » اجابة لالحاح امه وطيقاً لرأيه المخصوصي . ولكي يكون لجميلة
 ما تقضي به ساعات فراغها الطويلة كان يأتيها من مدة الى مدة برواية
 او مجلة او جريدة . هكذا جاءها مرة برواية « البوسا » لفكتور هيكوا
 واخرى برواية « البعث » لتولستوي وغيرها « بنتان غسان » و « العباة
 اخت الرشيد » و « غادة كريل » وسواها لجرجي زيدان وغير ذلك من

الروايات والكتب . جميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها لكنها لم تكتف بالمطالعة بل كانت تشعر ان قوى الشباب فيها تنال شغلا جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف ان ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة ارضاء لمخاطر زوجها وامه وابنيه .

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا انه اخذ يتسع مع الايام حتى لم تعد قادرة ان لا تراه ، لا سيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقته معها .

مر عام وتلاه الثاني بعد زواجهما ، وكل يوم جديد كان يوم كد جميلة ان هاوية فغرت فاها بينها وبين جميل . هو لم يزل يتادبها « قرقورة » وهي لا تزال تناديه « قرقور » وتستقبله كل مساء في الباب او عند اسفل الدرج خارجاً . لكن ذلك الحنو في صوته وتلك اللهفة في عينيه تبخرت كدموع الندى عن وجنت الاهار بعد طلوع الشمس . لم يبق من اثر لتلك الاجسام اللطيفة - ابتسامة العاشق - على وجهه الجميل . ووجهه لم يعد كالسابق، مرآة مصقولة تشف عن كل حركات روحه وقلبه بل اصبح الان وجه بحر رائق تمثل الحياة تحته مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الاذن . ذلك النور الالهي في عينيه الذي كان يسلاً قلبها بالذمان السعادة والحب قد انطلقاً الان وحل محله فكر اسود عميق تهيب منه نيمات باردة على روح جميلة التي كانت لا تزال تمشق بكل قواها في هذا الانقلاب الغريب لم يأت فجأة بل بالتدريج . جميلة بدأت تلاحظه

بعد مرور السنة الاولى لاقتراثهما . والان تراه يزداد يوماً عن يوم . قلبها يتوجع وهي لا تظهر الوجع على وجهها خوفاً من ان تبخر من روحها آخر قطرة من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها . يخيل لها أحياناً ان ما طرأ على حياتهما ليس سوى غمامة مرت بساء سعادتهما وستنتفيح عن قريب . لا سيما لما تسأل نفسها عن اسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا تجدها . هي لا تزال تحبه كالسابق ان لم يكن اكثر شفقتها لا تزالان تشتاقان الى شفثيه وصدورها الى صدره هي لا تزال تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها محدقتان في جهة واحدة - الجهة التي سيأتي منها . وبالاختصار فجميل لا يزال « فرقوقها » فماذا طرأ على جميل ؟

بقي هذا السؤال يعذب جميلة نهاراً بعد نهار وليللاً بعد ليل الى ان سمعت مرة بالصدقة هذه المحاوره الوجيزة بين حماتها وجميل

- يا ابني . لحد و بين ناظر ؟ اطلع دبر مرتك !

- ايش بدني دبر فيها ؟ شو انا بخلق ولاد ؟

- بي . هيك يقولوا ؟ خذها عا بيروت . خذها عالشام . بما خليلي انا دبرها . هيك ؟ ينقطع نسلنا ونحنا قاعدين ؟

- بالله يا امي اتركيني بحالي . هلي بقلبي بيكفيني . عيلي اللي بدك ياه ! ...

هذا الحديث القصير بين ام جميل وجميل فرس لجميلة كل ما كانت

تتوق نفسها المتألمة الى معرفته من زمان . لكن معرفتها السر لم تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها اوجاعاً . وما العمل ؟ هي تحب جميلاً ولا تتأخر لحظة ان تموت لاجل جميل ، وليس في العالم ما يشق عليها ان تضحيه لاجل ارجاع حب جميل اليها . لكن جميلاً يطلب ممن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه . جميل يطلب منها اولاداً - وما ذنبها اذا كانت عاقراً ؟ هي لم تعد تبالي بالالام النفسانية التي يسببها ادراكها ان ما كانت تخشاه قد اصبح الان حقيقة لا تدحض - وذلك ان سعادة جميل معها لم تكن تامة بدون « عريس » وان حب جميل لها كان حباً جزئياً لا كاملاً . كل افكارها تحولت اى نقطة واحدة وهي - هل من سبيل الى تجديد نار الحب في قلب جميل ؟ - السبيل الوحيد ولادة البنين . وحماتها نوهت عن بيروت والشام . فاذا ترى كانت تعني بذلك ؟ هل في بيروت او الشام اطباء يقدرون ان يجعلوا العائر تحمل وتلد ؟ حماتها وعدت ان تأخذ هذا الامر على عاتقها . وهي امرأة محكمة مجربة ، أفليس الافضل ان تعمل بكل ما تقوله حماتها ؟ لكنها لم تسيء الى احد في هذا العالم - فلماذا اساء اليها العالم ؟ حبها لجميل لم تزد الايام الا ناراً فلماذا خمدت نار حب جميل نحوها ؟ هي راضية به بدون اولاد . فلماذا لا يرضى هو كذلك بها ؟ أليس هو المسمى « انبياء » فلماذا تسمى لتكفر عن اسائه ؟ أليس الافضل ان تجازيه بالمثل وتقابله على البرودة بالبرودة ؟ أليس الافضل ان تتبر قلبها ليستكن وتطفىء

✽ الموت والحلب ✽

للصوم بكونيكي



بالدموع لواعج حبيها وآلامها؟ - فكن - ربما ١٠٠! ربما كان في وعد حمايتها
بعض الامل . فلماذا لا تتبع بارقة ذلك الامل؟ - بقيت جميلة مدة تتردد
بين الشك والعزم . دموعها تهم بالانهيار فتحبسها . وقلبيها يكاد ينفجر في
صدرها كقنبلة رشاشة - فتقول له « على مهلك يا قلب ... »

ام جميل اصرت على رأيها هذه المرة وفازت . جميل لم يعارضها
وتمنعات جميلة لم تكن لتنف في طريقها . وهكذا أمرت كتبها يوماً من
الايام ان تعد كل لوازم السفر وفي الغد « نزلت » معها الى بيروت بعد ان
اعلنت للبحر ان انا ذاهبة « لتشم كتبها الهوا » لان كتبها « يا ولدي
محصورة » . وبعد غيبة اسبوع عاد الاثنان من سياحتهما وعادت جميلة
تراقب موت حبيها التدريجي مشعة انها تموت معه موتاً بطيئاً - موتاً
رزحياً . بيروت لم تخفف من آلامها الجسدية والنفسانية . ومعاملة جميل
لها كانت تزداد خشونة لا سيما بعد ان مر عام على زيارتها لبيروت . اذا
كان جميل قبل تلك الزيارة يقبلها ولو قبلات ناشفة ويدعوها « قرقورتي »
ولو نادراً فالان لم يعد يقبلها على الاطلاق وعاد يدعوها « جميلة » وقلماً
يناديا حتى باسمها . تعلم فجأة تدخين الترجيلة فصار لما يعود الى البيت
يجلس كل مساء مع فرجيلته بدلاً من « قرقورته » . لا يحدث احداً ولا
يجسر احد ان يحدثه الا اذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم
يظأ عليه تغيير البتة . وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب الى غرفة منامه
ويقفل الباب وراءه

جميلة اخذت تدوب كالشمعة ولم يكن لها أحد في العالم كله تكشف امامه روحها سوى امها . ولكن - ماذا تفهم امها ؟ اذا حدثتها عن المأساة التي كانت تمثلها الايام في قلبها تنهد وتبكي ولا تفهم ماذا تقوله ابتها : امها ، كأم جميل ، تنظر الى عقر ابتها كألى قصاص صارم من السماء ، كألى فادحة عظيمة ، كألى عيب كبير لا يمحي بين الناس . ننظر الى قرينات جميلة قراهن يغدين باندبتين صيانتاً وبنات فتخنها النصبة لما تفكر ان ابتها التي كانت « زينة » بنات البلدة ، ابتها التي تحدث الغريب والتعريب بجمالها وآدابها ، ابتها التي تقاطرت لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان - تمشي الان ولا لبن في ثديها ولا طفل على ذراعيها . . . لذلك بدلاً من ان تجد جميلة تعزية عند امها ، كانت تضطر ان تعزبها

ام جميل لم تكف بسياحتها الى بيروت بل اجبرت كتبها ، بعد مرور عام ، ان ترافقها الى الشام واعلمت هذه المرة كذلك لاهل القرية انها ذاهبة « لتشم كتبها الهوا » لان كتبها « يا ولدي محصورة » . لكن اطباء الشام واطباء زحلة لم يفعلوا ما قصر عن فعله اطباء بيروت - حينئذ لعنت ام جميل في قلبها الطب والاطباء وعوت ان تستعين « بالمغاربة » . فصارت لا تسمع عن « مغربي » زار البلدة الا دعت الى بيتها وشرحت له حكاية كتبها ، حتى تحول بيت الكرواج الى نزل يومه كل من رفع صوته في تلك البلدة . ونادى . « حكيم . طيب . دوا للعبة . دوا للعين ! » ولم يطل ان تحققت ام جميل ان حفاقة « المغاربة » كذلك لم تجدها نفماً . فإنا العمل ؟ -

بقي باب لم تطرفه ام جميل بعد وقد نزلت به آخر وسيلة تلجأ اليها اذا ضاقت بها كل الوسائل ^{٣٠} ذلك - زيارة المدبوره - عليهم السلام .
 زارت مع كتبها دير مارجرجس الحميرى . وبعد سنة زارت مارمطانيوس قزحيا . ثم مار تقلا النخ وجميلة في يدها كانه خرساء تدبرها كيفما شامت . في بدء الامر كانت جميلة تمنع عن هذه الزيارات لكنها تحققت بالامتحان ان لا نفع من تمنعها ولذلك استسلمت لارادة حماتها وقد فقدت ارادتها تماماً مع فقد حب زوجها . الحياة اصبحت ثباتاً ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة للتخلص منه . مضى على زواجها نحو عشرة اعوام فادركت ان السعادة التي سكرت بها في الاشهر الاولى قد ذهبت ولا امل يرجوعها . جميل يكاد لا يكلمها على الاطلاق - حتى ولا ينظر اليها . يقضي اكثر لياليه في السوق ويرجع بين المرة والاخرى احمر العينين مع زرقه تحتها . تتصاعد من فمه روائح العرق والنبذ والجمعة . استانه اكتست بغطاء اصفر كثيف . لون وجهه انقلب من الوردى الى الرمادى . طرفا شاربيه هبطا الى اسفل . لحيته لا تبرى الموسى احياناً في اسبوع . لما يرجع الى البيت يتحول كله الى مقبرة لا حركة ولا حياة فيها . لا يجسر احد ان ينس بيت شفة . واذا حدث وقال او فعل احد ما ليس على خاطره - سواء كان ذلك اباه او امه - يبتأ بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل اليه يده من فرش وآنية . وهرة ضرب زوجته لانها رفضت ان تذهب الى الكنيسة وتلبس كل مجوهراتها جميلة كانت تراقب كل ذلك وقلبا يتفطر . وجميل وام جميل

ينظران اليها كمسبب تعاسة وحيدها لذلك يفضانها . وكم سمعتها يتحدثان « ولدي - تقول ام جميل - ها الصبي ذاب من قهره . لا بقي الله يطعمها ولا بقي عزرائيل يقذفها عنه . لو ماتت كان بيتجوز له بنت حلال بحبيب له ولد يهزي آخرتنا وآخرته . . . » . ذاك الخنو الذي كانت نلاقه جميلة من حماها لم يبق له من اثر . اذا رأتها الان تكنس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق « يحي بي . ريتك تقيري حماك انشالله » . الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت الى بيتها من زمان . جميلة تشغل اليوم كثور في البيت وخارج البيت . واذا جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماها « رجعنا تقعد ؟ مش وقت تعود هلق ! » . الكل يشاركون جميلة في مصابه وبلواه وقل من في قلبه بعض الشفقة نحو جميلة . اذا خرجت من بيتها تخرج كل ام في البلدة تحمل رضيعاً حتى اذا اقتربت منها جميلة تخاطب طفلها هكذا « فواد ! - او بطرس او حنا - زقف لخالتك جميلة يا ابني زقف . بي . ربتين يلحدوني ها الديات الحلوين بجاه رب السما » الخ . كل ذلك لتسمع جميلة ويدهم قلبها المجهروح . وجميلة كانت تسمع ساكنة وتبكي ساكنة وتسرمر نفسها من الحياة والعالم ساكنة . اذا مشت تسمر كأنها تشي بين اشلاء . آمالها التي جندلتها الايام من حولها وان نامت تسمر بأنها نائمة على انقاص سعادتها المتهدمة . ماذا بقي لها في هذه الدنيا ولماذا تعيش ؟ ولكن هل ذوت كل آمالها على الاطلاق ؟ اذن لماذا لا تزال تقول « ربما » ؟ « ربما من الله علي . . . » لو « من الله عليها » ترى هل

تعود اليها تلك السعادة المفقودة ؟

عشاً حاولت جميلة ان تخيب على هذه الاسئلة لانها اصبحت غريبة عن نفسها . الظلمة التي اكتنفت روحها لم تبق لها متفضلاً لدرس خفاياها واسرارها . لذلك تعذّر عليها ان تعطي حساباً لنفسها عن نفسها فوجدت الاستسلام للايام اسهل طريق تسلكه ولذلك لم تعارض ارادة حمايتها لما اعلنت لها يوماً عن عزمها ان تذهب بها لزيارة سيدنايا - المجد لاسمها

من قال ان زمان العجائب قد مرّ فليذهب الى بلدة ع . من اعمال لبنان ويسأل عما جرى سنة ١٩١٠ ! امرأة بقيت عاقراً عشر سنوات . لم ينفعها علم الاطباء ولا ساعدتها عقاقير المغاربة . حتى مار مطانيوس قرحيا عجز عن « شفائها » . لكن سيدنايا - المجد لاسمها - سمعت صلاة ام جميل الكرباج العارّة .

نعم . سيدنايا لم تخيب طلبات ام جميل . جميلة حملت في تلك السنة وما اسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالاً بل في كل البلدة ! جميل رجع يناديها « قرقورتي » مع ان جميلة لم تعد تحب سماع هذا الاسم الذي كان يمزق قلبها كخنجر حاد ولم تعد تنادي زوجها « قرقوري » . جميل صار يرجع الى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع اصناف المأكولات والهدايا . الخادمة كذلك رجعت الى بيت الكرباج . وام جميل عادت تهتف كلما رأت كتبها تسح النبار عن كرسي او تحرك الطبخ في قدر .

« بي . بي . تقبري حمائك ان شا الله انت دياتك بيليق لمن الاليس

انذهب والحرير؟» - ملاك السلام عاد الى بيت الكبراج . جميل ترك
السكر واكتفى بالترجيله فقط . عادت الإبسامه الى وجهه ورجع نور
السعادة الى عينيه . ام جميل تقبل تهاني . اهل البلده بقلب طافح بالفرح
وتذكر كلاً منهم ان لا فضل لها في ما جرى قائلة .

« سيدنايا - المجد لاسمها ! »

جميل ، من شدة فرحه ، لم يلاحظ الانقلاب العجيب الذي حدث
في زوجته . لم يلاحظ ان تلك الإبسامه الملائكية التي كانت تتلألأ
على وجهها الوردى فيما سبق قد غابت الآن الى الابد تاركة مكانها علامة
سوءال مبهم . لم ير ان تلك القوة الكهربائية التي كانت تسرب من
عينها الضاحكتين الى اعماق قلبه فتملوه . غبطة ساوية قد اختفت الآن
وراء تلك الاهداب الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء
والندب . لم يشعر بنفحة جديدة في صوتها - نفحة حزن عميق لا اول
ولا آخر له . لم ير اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي ينم
عن أوجاعها النفسانية . واذا رأى بعض ذلك فكان يحسه طبيعياً في
حالة الحمل .

اما جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي الى داخل نفسها
كما تنسحب البزاقة الى مفتها . وهناك انفردت نفسها بنفسها لأول مرة
في حياتها فاعتراها رعب لما أخذت تحلل ذاتها بذاتها وترفع الستار رويداً
رويداً عن اشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف بوجودها . لأول مرة

في حياتها سألت نفسها . ما عسى ان يعني كل هذا - صباها وشبابها وزواجها
وظلماً روحها الدائم وسعادة لم تكدها تلعبها حتى تقصت من بين يديها
واختفت الى الابد؟ وانين قلبها الذي لا يبطل ، كأنه حية تفرض اوصاله .
وسياحاتها الى بيروت والشام وزحله الخ وزيارة الاديرة والنذور للقديسين
وتقديم الصلوات . . . ما عسى ان يعني كل ذلك؟ اهذه هي الحياة؟
وان كانت تلك هي الحياة فما غابتها منها؟ أن تحمل وتلد عريساً
لترضي زوجها واهل زوجها؟ عي الان حامل - فلماذا لا تنفع؟ ولكن
كيف حملت؟ . . . تصل جميلة في افكارها الى هذا الحد ثم تعود الى
حيث بدأت . كيفما اتلفت تشعر بأنها ماشية في دائرة مسحورة من الافكار
التي ستبعا كاشباح آمال ميتة . وكم حاولت ان تغت من تلك الدائرة
ولم تقدر! كم حاولت ان تتخلص من نفسها وترجع لتتنفس برأسها في
بحر الحياة الواسع - في حب زوجها وامها وملاطفة حماتها وحميها -
لكن دون جدوى . قبلات زوجها اصبحت ساءاً يتفشى في كل جسدها
وملاطفة حماتها - حراً تقطع شرايين قلبها . ادركت انها قد اصبحت
كورقة قطعتها الرياح من شجرة رحلتها الى محلات بعيدة غريبة . ادركت
انها غريبة في بيت زوجها وبيت امها وكل بلدتها - بل في العالم كله .
وهذه الضربة الروحية كانت تضغط ضميرها كل دقيقة وكل ثانية حتى
سمنت الحياة وسمنت العالم .

كان العاشر من شهر ايار سنة ١٩١١ يوماً من تلك الايام الربيعية في

لبنان التي يعرفها من عايش في الاماكن المرتفعة من ذلك الجبل والتي لم يظهر
الى الان قلم استطاع ان يفيها حقها من الوصف - الشمس كانت تتخطى
على مهلبا نحو المتوسط لما عاد جميل الكرياج من شغله الى البيت ولم يجد
زوجته جالسة على الدرج حسب عاداتها - سأل امه عنها فاجابت انها ذهبت
لتنزه من ساعة ولم ترجع ثم اضافت انها قد تكون زارت في طريقها بعض
الجيران - جميل لم يكتف بهذا التفسير لعلمه ان زوجته في المدة الاخيرة
كانت تتجنب الناس ومعاشرتهم كما تتجنب الافاعي والمقارب - لذلك
دخل توأ الى مخدعها ليرى اذا كانت قد لبست ثوباً من ثياب الزيارة -
فتأكد انها في ثيابها البيتية - لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعود ان يراه في
مخربها من الترتيب والانتقان - وبينما هو يسأل نفسه اين عسى ان تكون
« قرقورته » وقع نظره على ورقة مطوية على صفحة الرخام امام المرأة -
فاخذها واذا فيها - « تجديني تحت السديانة - جميلة »

قرأ جميل تلك الكلمات وطار بسرعة البرق الى السديانة - هو يعرف
كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف اصابع يديه العشرة - هي السديانة
عينها التي كان يجلس تحتها مع جميلة في الايام الماضية - ايام سكرتهما
بالحب الاول وسعادة الحياة الزوجية - سديانة دهرية واقفة على ظهر ربوة
يجري عند قدميها نبع ماء نقي عذب - حولها كثير من الأشجار المختلفة
الاعمار - لكنها هي اقدم شجرة في ذلك الجوار بل في كل البلدة وجوارها -
وصل جميل اليها ووقف جامداً كمن أصيب بمس - لا يدري أيكمي

ام يضحك .

« قرقورة! قرقورة! » - امامه زوجته على الارض مضطجعة على جنبها اليمين وعليها ثوب العرس - ذلك الثوب عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي احدى عشرة سنة امام الخوري بولس على رأسها اكليل من الازهار . شعرها العتيقي مسدول على كتفها اليسر . وضميرة منه تطوق عنقها . رأسها ملقى على ذراعها اليمين ويدها اليسرى مطوية على صدرها بشكل نصف دائرة واصابعها تسند خدها اليمين

« جميلة! جميلة! » - جميلة لا تحيب . انحنى زوجها فوقها ولا يزال يخالج قلبه امل ضعيف ربما كانت قائمة . اخذ رأسها بين يديه وللحال تراجع الى الوراء، وصرخ مذعوراً . « قرقورته » كانت حثة هامة . . . لما عاد اليه رشده واقرب منها ثانية لمح بين طيات ثوبها ، فوق صدرها رسمه ورسمها في ثياب الاكليل ووجد بالقرب منها ورقة مطروحة على العشب كأنها حاولت ان تنزقها ولكن حال بينها وبين ذلك الموت . فتح تلك الورقة بيد مرتجفة وهذا ما وجد فيها

« الى قرقوري الحبيب الذي لا يثمن !

في مثل هذا اليوم ربطنا الخوري بولس بوثاق الزيجة . واليوم - بعد مضي احدى عشرة سنة - يفصلنا الموت . فهل نلتقي بعد ؟ اذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدي بانتظارك على عتبة العالم الثاني فاتحة ذراعي لاستقبالك ومهينة شغتي لقبيلتك . وسوف تسمع سوءالي

مرة اخرى . « كيف حالك يا فرفور ؟ » . آه يا جميل - لو كنت الان
بجانبي ! الان - وانا واقفة بحضرة الموت ! احب ان اشكرك على كل قبلة
قبلني اياها بحب وشوق . اود ان اشكرك على كل كلمة وكل حركة
وكل لحظة حَبَّت بها الحياة الي . مرت في دقائق جعلتني انسى ان في
العالم اوجاعاً واحزاناً . وتلك الدقائق كانت من هدايا حبك - فاشكرك
عليها يا جميل ! حملت احلاماً جعلتني اظن نفسي في السماء لا في الارض
وتلك الاحلام كانت من نسمات حبك - فاشكرك عليها يا جميل ! ذقت
طعم سعادة الفردوس . وتلك السعادة كانت من ثمرات حبك - فاشكرك
عليها يا جميل ! اما انا فماذا قدمت لك عوضاً ؟ - قدمت لك قلباً ملاً
حبك . قدمت لك روحاً أصبحت انت روحها . قدمت لك جسماً نقياً ،
جسماً طاهراً . وبالاجمال - كرست لك ذاتي . وما ذني اذا لم
توازي تقدمتي عطايك ؟ انت لم ترض بي وحدي - لم تكفِ بجسمة
« مجردة » - وانا قبلت بك وحدك دون بقية العالم . انت كنت لي النكل
بالكل . سعادتي تمت بك وبحبك . لكن سعادتك لم تتم بوعي . انت
لم تظهر لي ذلك في اول الامر ولكن الايام كشفت لي ما كان مستوراً عن
عيني . كنت اظنك سعيداً بحيي كما كنت سعيدة الى النهاية بحبك فقط .
وما أمر تلك الساعة التي ادركت فيها خطأي ! أتذكر حديثنا عن « العريس » ؟
أتذكر لما سألتك اذا كانت سعادتك غير تامة بلا اولاد ؟ أتذكر جوابك
لي ؟ حاولت مع ذلك ان اخدع نفسي . حاولت ان اقع ذاتي ان محبتك

للاولاد كانت كحبة بقية الرجال . وان حبك اياي سيبتى كما كان -
سواء رزقنا الله « عريساً » ام لم يرزقنا . وما أمر الحقيقة التي كشفتها لي
حوادث السنوات التي تلت ذلك !

لما تأكدت ان لا رجاء مني لالذ لك اولاداً نبذتني من حياتك كالنواة .
ولم تكف بذلك بل ابغضتني وكرهتني كأنني سم افعى . بدأت بالتدخين
ثم بالسكر ثم بشمعي وضربي . أتذكر لما ضربتني لاني رفضت ان اذهب الى
الكنيسة لابسة كل حلي ؟ آه . ما أذ تلك الضربات من يدك ! قل لي
بحقك - اما كانت تدخل الشفقة قلبك لما كنت تنظر الي اسير في البيت
كشبح اصم اخرس . اراقب كيف تهبط بناية سعادتني امام عيني . وارى
نفسي غريبة كيفما توجهت ؟ أنسيت اني لم أزل من لحم ودم مثلك واني
لم افقد رقة شعور النساء ؟ هل قسيت بهذا المقدار حتى لم يبق في قلبك
مكان للرقه على الاطلاق ؟ - آه . كم مرة وددت في تلك الدقائق لو
نظرت الى اعماق نفسي ، كما كنت تنظر الى خفاياها سابقاً بعينيك الخارقتين ،
ورأيت ما كان يجول فيها !

انت لا تعرف آلام المرح في القلب . واول جرح في قلبي نلته من يدك
كان ادراكى ان حبك لي - من الاول الى الاخر - لم يكن حياً لشخصي
انا ، لم يكن حياً لي كأنتسان مستقل بوجوده وكيانه في هذا العالم . انت
احببتني كأأم اولادك في المستقبل . احببتني كأنتى ستترك لك ذرية قبل
ان تموت . ذاك عندك طبيعي . لكنه عندي أمر من الموت . لما كنت

افكر ان لا اثن لي في عينيك بذاتي ، ان لا قيمة لجسدي وروحي بين يديك
الا كآلة للتبذير ، كنت اطلب الموت لنفسي . انت لا تفهم ذلك . انت
الى الان لا تدرك ان المرأة انسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن
اولادها لذلك لم احاول ان اقول لك عن ذلك شيئاً . انا وجدت فيك تنمة
حياتي . لكن تنمة حياتك لم تنحصر في فقط بل تعدتني - وهذا ما كان
يوهمني ويجرح قلبي . احبتك قبل الزيجة واحبتك بعدها ولا ازال احبك
الان . لم ابغضك الا دقيقة واحدة فقط - لما رفعت يدك وضربتني مع اني
اذكر ذلك الحادث الان براحة ولذة واشتهي لو كنت معي لتعيده

هل ظننت اني شاذة عن سنة الطبيعة ؟ هل حسبت اني ، وانا امرأة ،
ابغض الاولاد واعالة الاولاد ؟ آه . لو تدري كم ليلة حلمت ان طفلاً
على ذراعي ! كنت اراه كذلك في اليقظة يمتص ثدي . اسع دقات قلبه
الصغير وارى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء . كم مرة رأيت يدرج امامي
في المدار . كم مرة سمعته يناديني « ماما » . كم مرة جلست بقرب سريره
الصغير وغميت له لينام محاذة بوجهه الملائكي وعينيهِ السماويتين !
لكنك كنت اعشى عن كل ذلك . كيف لا تفهم اني لو رفضت ان اصحي
سعادتي ، وهي حقيقة كائنة ، لاجل اولاد لا يزالون في رحم المستقبل ،
اي لاجل ما ليس كائناً ، لا اكون اعبر بذلك عن بنصي للاولاد ؟ ألا يقول
المثل - عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة ؟ مع ذلك فقد سلمت نفسي
لارادتك كعبدة . حرمتني لذة الشغل في البيت خوفاً من كلام الناس -

فرضبت . كرهتني لاني لم أند لك « عريساً » - فحملت نفسي فوق
طاقتها من زيارة الاطباء والتدبيرين والادوية . انت لا تدري كم ذرفت
من الدموع في خلواني وابان سياحاتي . انت لا تدري كيف كان يقطر
قلبي دماً لما كنت اراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأني هواه اصفر !
امك وابوك كانا يشتهيان ان « يقذفني » عزرائيل عنك لعلك تقدر ان تأخذ
لك امرأة « ولأدة » . وها انا احذف نفسي من جفانك . فرما وجدت
احسن واخصب مني . انا كنت متعلقة بوميض امل ضعيف ، كما يتعلق
الغارق بقشة ، حملت المفض والالم والذل والاهانة وانا اقول « ريساً » .
عدت فولدت لك « عريساً » بحجية من السماء . كنت اظن اني اذا حصلت
على ذلك استرجع خيال حبك السابق وسعادتنا الاولى . شدة رغبتني في
ارضائك واسترجاع حبك حملتني على اقرار ذنب لو غفرته انت لي فلا
اغفره انا لنفسي . الموت عن قريب سيفصلنا - فلماذا اخاف ان اظلمك عليه؟
انا احمل الان في احشائي روحاً صغيرة وجماً صغيراً - هو الجنين
الذي اعاد الاجسام الى وجهك والنور الى عينيك . لكنه ليس من لحمك
ودمك ضحيت عزة نفسي وطهارة جسي لاحصل عليه ارضاء لمخاطرك .
لكنني ادركت الان ان ما فعلته ذنب لا يقتنر . انا لا اريد ان اشترى حبك
بالخداع والزنى لكني لما زويت ، زويت لاجلك فقط انا اشعر
بحركات هذا العنقل التمس بين ضلوعي الان . لكنها ستهمد عن قريب .
ستقف دقات قلبه الصغير لما تقف دقات قلب امه الزانية . من هو ابوه ؟

- وهل يهيك ان تعرف ذلك او هل يخفف ذلك من ذنبي ؟ - بكفيك ان تعرف انه ليس ابتك فربما تُسر حينئذٍ انني اموت وأميتة ممي . ألا فاعلم يا جميل ان العاقرة انت لا انا ، ولكن ، مع ذلك ، أنا مجرمة في نظرك ونظر العالم - ولا رغبة لي على الاطلاق ان ابرر نفسي امام محكمة العالم . هل قتل نفسي جريمة كذلك ؟ أو لم أمت قبل الان ؟ ألم اكن ميتة كل هذه السنين التي تركتني فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس والقلب ؟ ومن هو قاتلي - ألت انت ؟ الان لا مرد لما فات . جميل الذي احبته روحي اولاً راح ولن يرجع . فما غايتي بعد من الحياة ؟

لماذا اتكلم عن كل هذه الامور ؟ بعد دقيقة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الافكار وتسكت دقائق هذا القلب الى الابد . ها الشمس تميل الى المغرب . وانا اشتهي ان تفارقني الحياة قبل ان يفارق النور اغصان السنديانة . في السنديانة فوق رأسي جوق من عصافير الحسون . ما ألد تغريدهم ! ما اطرب خرير الساقية وحفيف اوراق السنديانة ! أتذكر لما كنا نأتي ونجلس هنا اول ما ادركنا معنى الحب ، ؟ آه . لو كنت بجانبني الان لاضمك ولو مرة بعد الى صدري قبل ان اودع هذا العالم ! هنا ولدت محبتنا وهنا اذنتها معي . في يدي الان رسنا في ثياب الاكليل . ما كان اجملك وألطفك يا جميل في ذلك النهار ! ما اجمل شاربيك وما اعظم سحر عينيك وما ألد نضارة وجهك ! آه . لو تعود دقيقة واحدة ، بل لحظة ، من ذلك النهار ! آه . لو يعود جميل صباي ، جميل حيي جميل حياتي

وسعادتي! ... ما كان ألد الحياة معك يا جميل! اشكرك . اشكرك .
 اشكرك على كل قطرة من السعادة التي ارتشتها من ينبوع حبك واطلب
 منك صفحاً عن كل اساءة صدرت مني نحوك ان كان بالقول او الفعل
 او الفكر . انا اموت واسمك بين شفتي ... هل يمكنك ان تدفن هذه
 الصورة معي? ... احب ان انام نومتي الاخيرة مع رسم حبيبي جميل ...
 جميل الذي علقت به روحي من يوم ادركت معنى الحب ... لا طلب
 لي اليك سوى ان تصفح عن كل صفواتي ... ولا وصية لي عندك سوى
 امي ... امي . امي ... حبيبتي امي! ترى ماذا تفعلين بعد انحجاب
 جميلتك عنك الى الابد? !

اذا ذرفت على تربتي دمنة واحدة فقط ... دمنة واحدة ... اكون
 ممتنة لك حتى بعد القيامة ... وداعاً يا قرقوري الحبيب! ... وداعاً
 يا قرقوري الذي لا يُسمن! ... قرقورتك

جميلة . «

... ..

اخبرني صاحب من ضيعة جميل الكرباج انه رآه حديثاً في نيويورك
 وسأله - هل تزوج ثانية? فاجابه متنبهاً وفي صوته غصة « لا جميلة
 بعد جميلة . »

سُخَّرَ لِنَعِيمِهِ